التصوف الإسلامي

رسالة التحرر والجهاد والقوة

للأستاذ طه عبد الباقي سرور

فى غار حراء ، على القمة السامقة من الجبل الأشم المبارك ، التقى الإنسان بالملك ، تلاقى جبريل أمين الوحى ، وسفير فاطر السموات والأرضيين ، بخاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، والمثل الكامل ، للنوع البشرى المختار المصطفى ، اجتمعا وتلاقيا ، لأمر قد قدر . . فقد تأذن ربك بأن البشرية قد بلغت نضجها ، وآن أوان كمالها ورشدها .

وفى غار حراء ، عقدت البيعة التاريخية ، بين الله جل جلاله ، وبين عباده الذين اصطفاهم لرضوانه ولقرآنه ، ولرسالته التى ارتضاها لنا منهجا وسلوكا يرفعنا إلى حظيرته وأنواره ، فنكون فى أرضه خلفاء ، وفى رحابه أحباب وأعزاء .

وفى غار حراء . أخذ علينا العهد الخالد . أن نعبد الله لانشرك به شيئا ، فاذا صفت عبادتنا وخلصت له سبحانه ، نقية طاهرة ، أفاض علينا من أمداده ومن عطاياه ونعمه ، ويسر لنا سبلنا ، وأجاب دعاءنا ، وأطلق اليسر والرضا فى حياتنا ، ومنحنا القوة والعزة والسيادة والنصر فى الدنيا ، وبوأنا فى الآخرة الجنات العلى ، حيث النعيم الذى لايفنى ، والحياة التى لاتبلى .

فى غار حراء حملت الأمة الإسلامية الأمانة الكبرى ، أن تقدم للدنيا ، رسالة الإيمان والتقوى ، رسالة النور والهدى ، رسالة الخير والحق والسلام ، وأن تحمى هذه الرسالة ، وأن تدفع عنها الجاهلية العالمية ، على تعدد ألوانها وصورها وأشكالها .

ومن يوم الغار أذن للدنيا أن تشهد أروع ألوان المثاليات الإيمانية ، وأكمل الصور الإنسانية . فقد انبثق من رسالة الإسلام وشب على هداها وترعرع على نورها .

رجال برزة كرام ، أطهار أصفياء ، علماء أتقياء ، يسعى نورهم بين أيديهم ، وتسبح الملائكة بالدعاء والاستغفار لهم .

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، رجال يبيتون لربهم سجدا وقياما ويستغفرون بالغدو والآصال ، وتتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا .

رجال نعتهم ربهم بأنهم رضوا عنه ورضى عنهم ، وأحبوه وأحبهم ، وحسبهم خلودا وجلالا هذا الحب ، وهذا الرضا .

رجال منهم حارثة الأنصارى ، الذى وهب كشفا وجلاء ، حتى ليقول له رسول الله : كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا . فيقول له وما حقيقة إيمانك : قال : لكأنى أرى عرش ربى بارزا ، والملائكة يطوفون حوله ، وأرى أهل الجنة وهم فى الجنة يتزاورون ، وأهل النار وهم فى النار يتعاوون ، فيبتسم الرسول ويقول : عرفت فالزم ، عبد نوره الله بالإيمان قلبه » .

رجال منهم حنظلة الذى يقول له الرســـول ، لو بقيتم على ما أنتم عليه عندى ، لصافحتكم الملائكة على فرشكم » .

رجال منهم عمر بن الخطاب الذى يهتف وهو على منبره بالمدينة : يا سارية الجبل ، فيسمعه سارية بأرض العراق ، فيلجأ بجيشه إلى الجبل . وكان فى هـــذا الالتجاء النصر الأكبر .

رجال منهم على بن أبى طالب ، يفقد درقته يوم معركة حصن خيبر فيمد يده فينتزع بابا من أبواب الحصن ، ويجعله عوضا عن درقته ، فاذا انتهت المعركة قذف به ، فيعجز عشرة رجال عن حمله ، فيبتسم على ويقول : إنما هو عون الله ومدده .

رجال منهم ضرار الصدائى الذى يحمل يوم اليرموك على جيش الروم عارى الصدر من الحديد والزرد ، فيقال له ضبه ، رفقا بنفسك ياضرار ، فيبتسم ويهتف ، أرفقا بنفسى من الجنة ؟ .

رجال إرادتهم من إرادة الله ، وغضبهم من غضبه ، ورضاهم من رضاه ، لو أقسم أحدهم على الله لأبره . كما أخبرنا نبينا عليه السلام .

رجال فى تقواهم وفى علمهم وفى جهادهم وكمالهم . كأنبياء بنى إسرائيل ، وتلك مكانة لم تعط لأمة من الأمم ، ولم توهب لبشر .

رجال هم الذين أسسوا لنا التصوف الإسلامى وقعّدوا قواعده ، وأسسوا منهجه ، وأعلوا منابره . ورسموا آدابه ومثالياته ، رجال امتلكوا وحدهم أكبر القوى الروحية التى عرفها الوجود البشرى .

رجال يصفهم مستشرق اوربى ، هو العلامة — جيب — أذهله ما فى تصوفنا من جمال وكمال . فقال :

« إن التصوف الإسلامى صورة سامية لكل ما فى التاريخ من معانى الخير والجمال . وعلى هذا فإن الصوفى المسلم يستطيع أن يكون مغتبطا وواثقا بما يعتقد ، فهو يرى ويحس بأن روح دينه هى المثل الأعلى السخى السمح ، كأرفع ما يكون العلو والسخاء والسماحة ، وخصوصاً ، حين يراه معروضا باصطلاحات عصرية ساطعة متألقة » .

ونقد كشف — جيب — فى كلمته عن معنى دقيق يجب أن يتنبه له رجال التصوف جميعا ، وهو وجوب عرض التصوف الإسلامى عرضاً جديداً بمصطلحات جديدة ، توائم بينه وبين حياتنا الحاضرة ، ليأخذ مكانه القوى ، من وجودنا ، ويؤدى رسالته الخالدة فى حياتنا .

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى تلك المثاليات الإيمانية ، وإلى تلك القوى الهائلة المدخرة فى الروحانية الإسلامية .

فالعالم الإسلامى يقف فى معركة عالمية حاسمة لعلها أخطر معاركه ، إنها معركته فى سبيل الحياة والبقاء ، فإما أن يبقى فى الأرض ، وإما أن يذرى كل خير وحق من الوجود .

والمعركة التى نخوضها متعددة الميادين ، متنوعة الآفاق ، إنها ليست معركة فى ميادين القوى المادية فحسب ، بل لعل أخطر ميادينها هى ميادين الروح والأخلاق والايمان.

إن رمادا وثنيا ينتشر اليوم فى آفاقنا ، وإن دخانا الحاديا قاتلا يتسلل إلى قلوبنا وعقولنا ، وإن بريقا من التحلل والانهيار يعشى أبصارنا ؛ ويخدع حواسنا ، ولا نجاة لنا إلا بأن نعتصم بقوانا الروحية ؛ وتراثنا الإيمانى ؛ ومثلنا الخلقية الصاعدة .

إننا فى حاجة إلى تعبئة روحية كاملة . تقينا وتحمينا من التيارات الجاهلية التى تواثبنا وتأخذ علينا منافذ الحياة .

وإن النفس البشرية لا تزال أكبر معجزة تمشى على وجه الأرض . وإن فى أعماقها لطاقات وقوى ؛ أكبر من كل قوى المادة وتفجراتها .

إننا فى حاجة إلى تحول نفسى حاسم . فى حاجة إلى الروح الصـــوفى القوى ؛ فالتصوف فى جوهره ؛ ارادة وعزم وتصميم وتربية وايمان . وعزة وقوة وسيادة واخلاق .

إنه عبودية مطلقة لله . وتحرر كامل من كل القوى الأرضية . شهوانية ومادية .

إنه جهاد للكمال والتفوق . ومعراج مثالى ؛ صاعد إلى الأفق النورانى الأعلى .

إنه تعبير عن الانسان . . الانسان الكامل الذى اصطفاه الله وارتضاه لخلافة الأرض ودعوة الحق . وحماية الايمان . . وحمل أمانة القرآن ؛ وجوار الرحمن ؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » « وأوحينا اليهم فعل الخيرات » « والعاقبة للمتقين » ؟

طه عبد الباقى سرور